

الأسبوع الثاني: ممالك السودان الشرقي

1- الممالك السودانية في العصور القديمة

2- التمدد الإسلامي في بلاد السودان:

1. الممالك السودانية في العصور القديمة:

أطلق المصريون القدامى لفظ السودان على المنطقة التي تضم جزءا محدودا من بلاد السودان العربي أو ما يسمى بالسودان وادي النيل والذي يقع إلى الجنوب من مصر كما أطلقوا عليه أيضا اسم نوبيا ومعناها بلاد الذهب. كما أطلقوا عليه في العهود القديمة اسم كوش ، إثيوبيا وأنوبة.

لقد تعرض السودان لموجات من الغزو قادها المصريون في فترة الدولة المصرية الأولى والتي قامت فيما بين (2420ق م-1850ق م) ، كما استخدم العرب هذه التسمية للدلالة على كل البلاد الواقعة جنوب مصر وجنوب الصحراء الكبرى بإفريقيا والتي يسكنها السود

انقسم النوبيون في بلاد السودان الى خمس مجموعات رئيسية هي: الدناقلة في جنوب البلاد ، الخمس والسكوت في إقليم الجنادل والقديمة بين وادي حلفا و كرسكو أما الكنوز ففي الجزء الشمالي من كرسكو حتى أسوان، في حين يقع جنوب النوبة في إقليم سنار والجزيرة أما تلال غرب النيل فتسمى كردفان.

لقد نشأت فيه حضارات عديدة منها حضارة مروة والتي قامت بها مملكة نبتة فيما بين (735ق م - 350ق م) متخذة من مروة عاصمة سياسية لها، في حين كانت عاصمتها الدينية نبتة ، لقد بلغت هذه المملكة حدا من القوة مكنتها من حكم مصر غير انه سرعان ما نشأت على أنقاضها مملكة مروة الثانية والتي اعتبرها المؤرخون امتدادا للحضارة النوبية المصرية.

امتدت هذه المملكة على رقعة جغرافية واسعة شملت إقليم حوض النيل الأوسط مع امتداد حدودها شمالا حتى الشلال الثالث للنهر أما جنوبا وشرقا وغربا فكانت جغرافيتها غير معلومة على وجه التحديد لذا اکتف تاريخها الكثير من الغموض بسبب شح المعلومات حولها كما لا يعرف بدقة تاريخ سقوطها رغم إن بعض المصادر تشير بأنها المرحلة الثانية و النهائية لدولة

كوش التي تأسست في نوباتا في القرن 8 ق م عدت مملكة مروة منافسا قويا لدولة اكسوم الحبشية كما مثلت مفترق طرق القوافل من مختلف الجهات مما أهلها بان تشهد تطور اقتصاديا مهما في المنطقة حتى تاريخ إسقاطها من قبل ملك اكسوم (غيزانا) .

لقد قامت بعد هذه الفترة ممالك نوبية ثلاث وهي :

. مملكة نوباديا: والتي تأسست عام 530م، وكانت حدودها بين اسوان وعكاشة وقد اتخذت مدينة فرس عاصمة لها.

. مملكة المقرة: كانت حدودها من عكاشة حتى كبوشية وقد اتخذت مدينة دنقلا العجوز عاصمة لها .

. مملكة علوة : عرفت باسم علوة نسبة لعاصمتها مدينة علوة والتي تقع قرب الخرطوم كما عرفت عاصمتها كذلك باسم سوبا او السوبا، امتدت حدودها من كبوشية الى جنوبي النيلين الأبيض والأزرق.

لقد بسطت هذه الممالك الثلاث سيطرتها على القبائل المستقرة بالأراضي المجاورة لنهر النيل وروافده كما سادها طابع القرون الوسطى يذكر بان مملكة علوة انضوت تحت السيادة المصرية بعد قدوم المسلمين الى مصر في حين خضعت نوباديا لنفوذ مملكة المقرة بحيث شكلتا بعد عام 625م مملكتان متحدتان هما المقرة وعلوة.

وبعد وصول المسيحية إلى البلاد المصرية استطاعت أن تتوغل في السودان وبذلك اعتنقت الممالك الثلاث الديانة المسيحية في القرن الرابع الميلادي وتحديدا في عام 312م .

لقد انتمى منتسبوها إلى المذهب اليعقوبي وبالتالي كانوا جزءا من الكنيسة القبطية في مصر وقد كان للأباطرة الوثنيين في روما المسيحية دور كبير في لجوء اليعقوبيين إلى السودان خاصة نوباديا بسبب الاضطهاد الديني الذي مورس عليهم.

إن ملوكها بقوا موالين للكنيسة القبطية في مصر معتبرين أنفسهم حواريها وحمايتها جامعين بين صفتهم ملوكا وقساوسة كما يحوزون في ذات الوقت بين أيديهم السلطتين الدينية والدنيوية، غير أن المؤرخين لم يتفقوا حول تاريخ توغل المسيحية خاصة في مملكة علوة على وجه الخصوص.

لقد شهدت الفترة الممتدة من 1100 الى 1300م أزهى عصور مملكتي النوبة المسيحيتين غير انه وبحلول القرن الرابع عشر ميلادي بدأت في الاضمحلال وهذا بعد التصدع الذي أصابها لأسباب نذكر منها:

-الضغط الذي تعرضتا له من الشمال والجنوب بعد استقرار العرب بمصر منذ القرن السابع الميلادي خاصة في فترة الدولة الفاطمية بمصر ثم الدولة الأيوبية وكذلك الدولة المملوكية حوالي عام 1275م .

- يسود الاعتقاد بان نهاية مملكة علوة كانت على يد جماعة من العرب الغونج وذلك في أوائل القرن السادس عشر ميلادي.

- لم يكن دخول الأهالي بلاد النوبة للمسيحية عن قناعة بل كان بأمر من ملكها.

-اعتمادهما على الكنيسة القبطية في مصر وذلك بشكل مطلق.

- ضعف ملوك النوبة والصراع بين أفراد الأسرة المالكة واشتداد التنافس مع إهمال شؤون الرعية .

- استقرار العرب بالمنطقة بعد هجراتهم المتتالية إليها وممارستهم للتجارة .

2- التمدد الإسلامي في بلاد السودان:

لعبت الهجرات العربية قبل ظهور الإسلام دورا مفصليا فيما وصلت إليه العلاقات العربية الإفريقية حيث ساعدت عدة عوامل جغرافية خاصة البحر الأحمر في ظهور هذا التلاحق بين

إفريقيا والعالم العربي كما لعب مضيق باب المندب دورا فعالا في هذا الإطار، حيث مثل طريقا طبيعيا في عملية التواصل الحضاري بين إفريقيا واسبيا، كما كان لنهر النيل دور بارز في ذلك.

لقد سهلت هذه المعابر موجات الهجرات العربية نحو بلاد النوبة والتي تلاها التزاوج والمصاهرة وتمازج الثقافات وروح التعايش ، وبظهور الإسلام وانتشاره زادت أهميتها .لقد بعث والي مصر عمرو بن العاص بجيش كبير إلى بلاد النوبة قاده عبد الله بن أبي سرح حيث عقد صلحا مع الممالك المسيحية القائمة آنذاك عام 25هـ-646م لكن أهل النوبة نقضوا الصلح في عهد عبد الله بن سعد مما دفع به إلى غزو بلادهم عاقدا معهم صلحا جديدا، مكن من إقامة علاقات بين المسلمين وبلاد النوبة والتي ساعدتهم على مد نفوذهم فيها وتضييق الخناق عليها خاصة في القرن التاسع الميلادي بعد انتشار الإسلام والثقافة العربية وقد زادت مدد المسلمين أكثر أثناء الوجود الفاطمي بمصر، مستوطنين السودان مثبتين الثقافة العربية والدين الإسلامي فيه.

مثلت الهجرات العربية نحو السودان أحد أسباب سقوط مملكة علوة بسبب تواجد أعداد كبيرة منهم وهذا بعد أن عجزت عن مواجهة هذه القبائل، كما كان لسقوط مملكة المقررة أوائل القرن الرابع عشر الميلادي دور في اتساع نطاق هذه الهجرات نحوه بحيث مثلت هجرات قبيلة جهينة والتي وفدت من صعيد مصر وبلاد الحبشة اكبر هذه الهجرات وقد استقرت في جنوب بلاد النوبة والبجة منذ منتصف القرن التاسع الميلادي والتي أقسمت إلى ثلاث مجموعات رئيسية: شملت قبيلة رفاعة، اللحومية، الحلوبية، العوامرة الخوالدة، الشكرته، القواسمة، العبدلاب والعركيين وهؤلاء يقيمون في نصف الشرق من السودان بالإضافة إلى قبائل دار حامد، بني جرار، الزيادية، السنايلة والمعاليا ومساكنهم هي المنطقة الوسطى والشرقية في حين تركزت في كردفان ودارفورقبائل الورقية، الملحية، المحاميد، الكبابيش المعاربة، الحمر ومعهم قبائل العدنانية، القحطانية، الجهنيون، الكواهلة، الجعليون والرشايدة.

1. مملكة الفونج (سنار) : 1504 م . 1820 م

شكل تأسيس مملكة الفونج أو السلطنة الزرقاء في مطلع القرن السادس عشر ميلادي منعطفًا تاريخيًا مهما في تاريخ السودان الحديث وذلك على حساب مملكة علوة المسيحية في منطقة وادي النيل الأزرق.

لقد جاء تأسيسها نتويجة لحلف بين عرب القواسمة المعروفين بالعدلاب والذين كان زعيمهم عبد الله جماع والقبائل الجنوبية بزعامة عمارة دنقس وهو من قبيلة الشلك النيلية الجنوبية حيث تمخض عن هذا الحلف تنصيب عمارة دنقس سلطانا عليها وعبد الله جماع نائب له وممثله في المناطق الشمالية .

وقد أطلق عليها المؤرخون اسم مملكة سنار أو المملكة الزرقاء والتي تمتد حدودها من الشلال حتى حدود إثيوبيا جنوبا ومن الصحراء الشرقية حتى ساحل البحر الأحمر إلى كردفان غربا باستثناء مدينة سواكن التي كانت تحت نفوذ الأتراك بعد إخضاعهم لمصر عام 1517م. تتكون من عدة سلطنات ومشيخات خضع بعضها بشكل مباشر وبعضها بشكل غير مباشر وهي : خشم البحر، فازوغلي، الحمدة، بن عامر، الحلتقه، الشنابلة، المناصير، الجعليين، الميرفاب، الجموعية، الرباطاب، الشابقية دنقلا العجوز، الخندق، ارغو، الانقسنا، الوطاويط، البرتا البرون، الفلاقة، كنانة، الدغيم، العركيين، الجمجم ورفاعة.

اختلفت الروايات حول أصولهم فمنهم من ذهب الى القول بأنهم من إقليم البرنو دخلوا السودان من غربه في القرن الخامس عشر ميلادي ومنهم من أرجعهم إلى الشيلوك القاطنين في جزر النيل الأبيض، بينما أرجع البعض أصولهم إلى منطقة أعالي النيل الأزرق وإقليم فازوغلي، لكن الرحالة جيمس بروس ذكر بأنهم ينحدرون من قبيلة الشلك وهذا بعد زيارته لمنطقة سنار عام 1772 م وبأنهم قدموا من النيل الأبيض على متن زوارق صغيرة .كما يرجع البعض أصولهم إلى البرنو في السودان الأوسط ، في حين ترجع بعض الروايات أصولهم إلى بعض القبائل العربية التي استطاعت أن تتحالف مع بعضها البعض لتقضي على الأسرة

المالكة في علوة، غير أن الفونج أدعوا بأن نسبهم يعود إلى الأمويين الذين فروا من بلاد الشام عام 132هـ بعد سقوطها في يد العباسيين وتوغلوا حتى وصلوا إلى منطقة سنار على النيل الأزرق وعموماً فإن معظم الروايات ترجح أصلهم العربي، إن أهم ما ميز هذه القبائل هو غلبة العنصر العربي على مكوناتها وإن معظمهم يدينون بالإسلام كما أنهم يتحدثون اللغة العربية التي كانت لغة الدولة الرسمية .

اتسم نظام الحكم في دولة الفونج بالتالي:

- السلطان: يتم تعيينه من أبناء العائلة الحاكمة سواء أحد أبنائه، إخوته أو أعمامه وذلك عن طريق مجلس يتكون من كبار رجال الدولة بعدها تتم مبايعته، كان السلطان في سنار يتلثم بلحاف من حرير ملون يرتدي معطفاً موشى بالذهب يضع على رأسه حزاماً من قماش وعمامة بيضاء.

- معاونوه: يأتي الوزير بعد السلطان يقب بسيد القوم يشغل منصب قائد للجيش إضافة إلى رجال الدين وشيوخ الطرق الصوفية.

- المشيخات المحلية: تمتعت باستقلالية ذاتية ولم يكن السلطان يتدخل في تصريف شؤونها فقد كانت سلطته عليها رمزية فهي تؤدي الضرائب والزكاة، كما كانت تزوده بالرقيق وبعائدات الرسوم التي تعد موارد هامة لخزينة السلطنة إن القرية بقت تحت سلطة القبيلة الواحدة أو بعض من فروعها موالية لمشيخات القبائل كما كانت أراضيها ملكاً مشاعاً بين أفرادها الذين يشتغلون بالزراعة والرعي .

إن أهم المشيخات التي كانت تتبع دولة الفونج هي:

. مشيخة العبدلاب: من حجر العسل إلى سوبا (بين اريحي والشلال الثالث).

. مشيخة خشم البحر: على النيل الأزرق الشرقي بين الرصيرص حتى فازوغلي.

. مشيخة بني عامر: في الصحراء الشرقية بين البحر الأحمر وخور(بركة) .

. مشيخة الحلالقة : في جبل كسلا على القاش.

. مشيخة السنابلة :على النيل الأزرق شمال سنار .

. مشيخة الجعليين : بين حجر العسل والدامر ومركزها شندى.

. مشيخة الميرفاب : في شمال مشيخة الجعليين ومركزها بربر .

. مشيخة الرباطاب : فيما وراء أبي حمد .

. مشيخة المناصير : من الشامخية إلى الجندل الرابع .

. مشيخة الشايقية : يقطنون دنقلا .

لقد تميزت علاقات مملكة الفونج مع إثيوبيا بالودية وحسن الجوار نلمس ذلك من خلال رسالة ملك إثيوبيا "تكلاهيمانوت الأول" (1706 م . 1708 م) للسلطان بادي الثالث الأحمر (1682م . 1715م) والتي تضمنت أواصر الصداقة وحسن الجوار والتآخي بين الدولتين.

يذكر بان هذه العلاقات تراوحت بين الودية تارة والندية تارة أخرى تبعا لمتغيرات الساحة السياسية في كلا البلدين وللظروف الأمنية والاقتصادية لكليهما ،كما نجحت في إقامة علاقات ودية مع العثمانيين في البحر الأحمر وشجعت التجارة مع المصريين عبر طريق القوافل التجارية التي كانت تدر عليها أرباحا طائلة تذهب إلى خزينة السلطان ، حيث أقيم فيها مع أوائل القرن 18م حوالي خمسة عشر مركزا تجاريا في كل من بربر ، الدامر ، شندى ، وادي مدنى ، وسنار هذه الأخيرة كان يقيم بها حوالي 30الف نسمة

إن تحول التجارة الدولية عن مصر والبحر الأحمر نحو طريق رأس الرجاء الصالح أدبإلى تراجع مواردها المالية فبدأت تضعف مع لجوء القبائل الى السطو و السلب و النهب مع عجزها

عن ردعها الأمر الذي أدبإلى ضعفها وتفككها ،ومع أواخر أيامها سيطر عليها وزراء الفونج المعروفين باسم الهمج أو الهمق الذين وقفوا عاجزين عن وضع حد للفوضى وتدهور السلطنة. ومع أوائل القرن التاسع عشر انشقت عنها الكثير من القبائل والمدن مثل قبيلة الشايقية ومدن شندى و الدامر .

وبذلك زالت دولتهم بعد أن تنازل آخر سلاطينهم وهو السلطان بادى عن ملكه يوم دخول الحملة المصرية بقيادة إسماعيل باشا بن محمد علي عام 1821 م وذلك بعد وصوله إلى عاصمتها وتوقيع بادى على وثيقة الاعتراف بتبعيته للسلطان العثماني وتسليمه إدارة البلاد إلى والي مصر .

لقد ساهمت عوامل عديدة في سقوطها نذكر منها ما يلي:

. عدم اهتمام السلاطين باحتواء العناصر المختلفة والمشكلة للمملكة، لهذا كان الولاء للمشيخات ورؤساء القبائل.

. إنقال كاهل القبائل والعشائر بالنظام الضرائبي مما فاقم من تأزم أوضاعها اقتصاديا، مع تحول تجارة الرقيق نحو طريق رأس الرجاء الصالح، واستحواذ الأوروبيين على سواحل إفريقيا الغربية وإنشائهم لمراكز تجارية هناك.

. تردي الأوضاع السياسية بسبب الفتن والاضطرابات خاصة في عهد السلطان بادى أبو شلوح وذلك بعد أن انقلب عليه الجيش.

. ظهور سلطات دينية متعددة، حيث زادت من تعقيد أمور المملكة فشاع التعصب بين الفقهاء والذي انعكس سلبا على الاستقرار الاجتماعي.

. حروب الاستنزاف بين السلطنة وإثيوبيا خاصة عام 1604 م ، أدت إلى إضعافها ،مما دفع بالقبائل إلى الامتناع عن دفع مستحققاتها من الضرائب.

ما يمكن قوله بأن دولة الفونج لعبت دورا حضاريا معتبرا في السودان وذلك بنشرها للغة العربية ومظاهر الحضارة الإسلامية، فقد استطاعت إنهاء وجود مملكة علوة المسيحية، وعمرت لفترة ثلاثة قرون، غير أن التعصب القبلي وابتعاد ملوكها وسلطينها عن العالم الخارجي مكن الأتراك من إحكام سيطرتهم عليها وإخضاع عاصمتها سنار سنة 1820م.

مملكة دارفور: (1596 م . 1916 م)

تشير بعض الدراسات إلى أن أول من أسس هذه المملكة هم العرب الوافدون من مراکش وتونس ومصر بعد أن انتصروا على القبائل التي كانت تسكن الصحراء، حيث بسطوا سيطرتهم عليها وامتزجوا بها مشكلين دولة الفور، وكانت هجرات هؤلاء قد بدأت في القرنين 12 و13 ميلادي من بلاد المغرب عبر الطرق الصحراوية التي تبدأ من طرابلس نحو الجنوب وقد وصل الإسلام إلى هذه الديار بواسطة هذه القبائل البربرية الوافدة من الشمال.

يذهب البعض إلى القول بأنأصول هذه المملكة تعود إلى سلالة بني العباس ، وذلك بعد أن هاجر شقيقان إلى هذه المنطقة بعد سقوط الدولة العباسية على يد المغول عام 1258م ولكن بعد حدوث خلاف بينهما أتجه أحدهما إلى جبل مرة في دارفور والتي كانت تحت سلطة الملك شادورشييت الذي أحسن ضيافته وزوجه ابنته التي أنجبت ابنا سماه سليمان سولونج والذي أصبح فيما بعد ملكا على بلاد الفور ،وبذلك تمكن من وضع أسس المملكة ،حيث كانت منطقة جبل مرة بداية لتأسيسها والتي أخذها الملك سليمان منطلقا لحكمه الذي عمر إلى غاية عام 1670م ، ناشرا سلطاته كاملة على الإقليم.

تنقسم هذه المملكة إلى أربع مقاطعات هي غارب في الغرب، ریح في الشمال، صباح في الشرق وصعيد في الجنوب، تشكلت من القبائل التالية:

. الزغاوة وهم من المجموعات شبه العربية حيث تعتبر من أكبر قبائل دارفور وهم خليط من التيبو، الحاميين والزنج، يتحدثون لهجة التيبو، كما يتحدثون معها اللغة العربية، وإلى

جانب الزغاوة توجد قبائل البديات . البرتي . الميما والبيقو، في حين تتكون المجموعات النوبية من البرقد، الميدوب، أما المجموعات العربية فتمثلها قبائل الرزيقات، التعايشة، الحمر، البقارة، المعاليا، المساليت، المسلات، الهبانية، بنو هلبة، القمر، المناصرة، وبنو فضل الزيدانية.

تعد دارفور محور الطرق التي تربط بين المراكز النشطة في وادي تشاد وبورنو في الغرب ومع الشمال الغربي في طرابلس وتونس عن طريق فزان ونحو الشمال الشرقي مع مصر عن طريق درب القوافل وسنار عن طريق كردفان، أما شرقا فنحو البحر الأحمر والجزيرة العربية ونحو الجنوب الشرقي على منطقة بحر الغزال عن طريق بحر العرب، حيث جمعت عناصر مختلفة من حيث تكوينها العرقي أو العائدي، فقد جمعت بين المكونات العربية والزنجية والتي تحمل تقاليد مختلفة عربية وزنجية.

تدين مملكة دارفور بالإسلام رغم أن تدين أهلها كان سطحيا وكانت الشريعة الإسلامية هي مصدر القانون، إضافة إلى العادات والتقاليد تميز سكانها بطبيعتهم الرعوية كما اشتغل بعضهم بالزراعة، وكانت مداخل الدولة من العشور، الزكاة والجزية السنوية، ارتبطت في معاملاتها التجارية مع مصر وبلاد الهند.

شكل الرقيق عماد جيشها الذي كان معظمه من الفرسان الذين كان سلاحهم السيوف، اتسم نظام الحكم فيها بالوراثة والشمولية وبالسلطة المطلقة للملك الذي كان يلبس قميصا مذهباً وشالاً من الكشمير، يضع على رأسه تاجاً من الذهب

قسمت الدولة إلى أربع وعشرين قسماً لكل قسم منها رئيس يعرف بالملك وكانت الأرض تتبع للسلطان يعاونه في إدارة شؤون المملكة وزير يعينه ويقيله متى شاء ، كما كان له مجلس استشاري وموظفون مهمتهم تحصيل الضرائب.

تداول على حكمها عشرة سلاطين حتى عهد الحكم المصري للإقليم عام 1874م وهم

على التوالي:

. موسى بن سليمان سولونج (1670 . 1682) م وهو المؤسس التاريخي للسلطنة.

. أحمد بن بكر بن موسى (1682 . 1722)م.

. محمد (دورة) بن أحمد بكر (1722 . 1732)م.

. عمر (ليل) بن محمد دورة (1732 . 1739) م .

. أحمد قاسم بن أحمد بكر(1739 . 1752) م .

. محمد تيراب بن أحمد بكر (1752 . 1787) م .

. عبد الرحمان الرشيد بن أحمد بكر(1787 . 1802) م .

. محمد فضل بن عبد الرحمان (1802 . 1839) م .

. محمد حسين بن محمد فضل (1839 . 1874) م .

. إبراهيم بن محمد حسين (1874) م(33).

استطاع المصريون إخضاعها لسلطانهم عام 1874 م وذلك بعد أن أبدى جيشها مقاومة شديدة لهم، غير أن علي دينار نجح في تأسيس حكومة بدارفور عام 1898 م، وهذا بعد سقوط الدولة المهديّة متخذاً من مدينة الفاشر عاصمة لسلطنته متحالفاً مع الأتراك والسنوسيين عام 1916 م، مما دفع ببريطانيا إلى إرسال حملة عسكرية قادها هولستون، حيث قتل في ضواحي مدينة الفاشر في 6 نوفمبر 1916 م وبمقتله انتهت مملكة دارفور.